

العلامة الشيخ "محمد بن الحاج عيسى" الورجلاني وأبرز مآثره

أ.الشيخ علي خويلد

د.محمد الأمين خويلد

1- توطئة:

سنحاول من خلال هذه البحث- التعريف بشخصية الإمام الرباني والعلامة الصوفي الشيخ "محمد بن عيسى" الورجلاني. وإن الكتابة حول سير العلماء ، ومناقب أهل الفضل أمر جليل، ولكنه في الوقت ذاته شرف عظيم وواجب ينبغي أن يؤدي ، لأن سيرتهم تعد مثالا ينبغي أن يحتذى ، لما ضربوه من الروائع في التضحية وطلب العلم ونشره بعد ذلك . ومن العلماء الذين يعتز بهم القطر الجزائري عامة ومدينة ورقلة على وجه الخصوص، العلامة الشيخ محمد بن الحاج عيسى وفيما يلي موجز عن حياة هذا العلم.(1)

2 - مولده ونشأته:

هو العالم الفقيه المفتي الشيخ محمد بن علال مسروق الشطي نسبة لقرية الشط، بمدينة ورقلة، و أمه الزهرة بنت محمد،و قد ولد سنة 1892،من أبوين صالحين ينتميان إلى عائلتين عريقتين في الشرف و العلم و ينتسب من جهة والده للقبيلة المسماة (المشايع)،أكبر قبيلة في الشط التي كانت قبل سيدي بلخير،و قد حرص أبواه على تعليمه و تربيته أحسن تربية،و تنشأته على الأخلاق الفاضلة،حيث أدخله إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم و هو ابن أربع سنوات، توفي والده وهو ابن ست سنوات،فتولت أمه أعباء تربيته و تعليمه،و كانت تحثه على طلب العلم،و توقظه قبل الفجر بساعات ليذهب إلى المسجد الجامع،لينهل مما أفاء الله عليه من علم و قراءة القرآن .

3- طلبه للعلم وأبرز مشآخه:

دخل الشيخ الكتاب وسنه لا يتجاوز الأربع سنوات ، لدى الشيخ بلخير باعمر أولاً، ثم الإمام الحاج عبد القادر ثانياً و عليه أكمل حفظ القرآن ، و تمكن من حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة و انصرف بعد ذلك إلى تلقي مختلف العلوم، و كانت البداية على أيدي علماء المنطقة . فأخذ عن شيوخ المنطقة مبادئ الوعظ و الإرشاد، ومبادئ الفقه، و علوم القرآن، و من فضل الله عليه أن جعل نخبة من العلماء والمشآخ -الذين تتلمذ عليهم- يقصدون مدينة ورقلة، إلى درجة أن أحدهم قال له ذات يوم: " ما سبب مجاورتي لمدينة ورقلة إلا أنت " وهو العالم الجليل عبد الله الشنقيطي، الآتي من شنقيط من موريطانيا، و قد تتلمذ أيضاً على الشيخ محمد السكوتي ، و عن هذين الأخيرين أخذ اللغة و علومها و علم التوحيد ، والمنطق، و أصول الشريعة، وكانت له اتصالات بالشيخ الطاهر العبيدي، و الشيخ الطاهر بن عاشور ، و الشيخ الهاشمي الشريف الحسني صاحب الطريقة القادرية ، و غيرهم من علماء اليمن، والحجاز ، ومصر ، وفلسطين الذين التقى بهم أثناء رحلاته الثمانية إلى الحج ، والتي كانت أولها عام 1928.

وبعدما أجازته شيوخه ، وسارت بأخبار علمه الركبان ، انبرى لتبليغ علمه جاعلاً من مدرسته بالشط منارة علمية ، ينطلق منها إلى ربوع ورقلة واعظاً مرشداً، وقد أدرك الشيخ محمد بعمق عظم هذه الرسالة ، فقام ببلغها ويؤديها إلى آخر يوم من أيام حياته .

4- أبرز صفاته:

كان الشيخ محمد -رحمه الله- ذا موهبة إلهية عظيمة إذ رزقه الله قوة الحافظة واتقاد الذكاء، و سرعة البديهة، و حضور الحجة، فضلاً عما خص به من كرم في الأخلاق ، و رحابة في الصدر ، و بعد في النظر ،وسداد في الرأي... .
و قد عرف الشيخ بزهد وورعه و كثرة عبادته، و لم يشغله أداء رسالة العلم عن كسب قوته بنفسه من عمله فيما تركه له والده من النخيل، و هو من دانت له

الرقاب ، ضارباً أروع الأمثلة في الاعتماد على النفس و التواضع ، و كان سباقاً إلى إقامة الصلح بين العروش و القبائل إذا ما سرى بينها خلاف .

و ثبت أن أمارات الفضل و خلال النباهة و صفات العلم والمروءة ، تجلت فيه مذ كان صبياً ، و قد أذكى فيه هذه المواهب، المحيط الصالح الذي نشأ فيه ، والعائلة الكريمة التي ترعرع في أحضانها ،

و كان شغله الشاغل طلب العلم و نشره و التعمق فيه، متجنباً للقليل و القال، مبتعداً عن الغيبة وما يسف بالمروءة .

و كان في إفثائه يترك الأقوال الضعيفة و الشاذة، ولا يتكلم إلا بالمعتمد من الأقوال الراجحة أو المشهورة . وكان شديد الحرص على ضرورة التثبت فيما يأخذ عنه، فلا ينبغي أن ينقل الناقل عنه مسألة هو منها في شك.

5- الشيخ ورسالة العلماء:

تقد تمكن للشيخ حوالي سبعة عشر فناً، تتدرج تحت علم الكلام ، و علوم الفقه ، وأصول الشريعة، و علوم اللغة ، وعلوم القرآن ، و غيرها من العلوم التي كان يؤمها الطلبة و الدارسون من كل حذب و صوب ، حتى أصبحت الشط توصف في ذلك الوقت بفاس الصغرى .

و قد اعتنى الشيخ اعتناء خاصاً بالحديث النبوي الشريف بالاعتماد على صحيح البخاري سرداً للمتن ، ووقوفاً عند أبرز المعاني، و قد بقي هذا العمل الحميد متواصلاً بعده ، و كان قصده من بث حديث المصطفى و نشره إنارة العقول و تطهير النفوس من برائث الخرافة و أدان البدع و الشوائب التي علق بها ، يحذوه في ذلك قوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر " . و كان يدرك كل الإدراك أن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها .

ومما لا مراء فيه أن تركيزه على حديث المصطفى يحمل من الأبعاد و الغايات الإصلاحية الشيء الكثير، من توسيع لدائرة العلم ، و حث على اقتفاء آثار الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم ، و الإكثار من الصلاة عليه ، و التبرك بذكره وبحديثه صلى الله عليه و سلم ، و لا يخفى مدى ما تعكسه هذه الأمور من نور

في النهي والألّباب ، فينشأ بذلك جيل ينبذ البدع و الخرافات و الترهات و الأباطيل ، جيل يعمل جادا بكل ما أوتي من قوة على اقتفاء أثر السلف الصالح ، و السير على هديهم ، وعلى رأسهم أستاذهم الأكبر و مرشدهم الأول و إمامهم الأعظم النبي صلى الله عليه و سلم ، وكأن الشيخ - وهو يركز على الحديث الشريف - كان يتمثل قول الله عز و جل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).وقوله قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"

وقد أقام بمسلك العلم الذي اختاره حربا شعواء على البدع والخرافات التي عمل الاستعمار على ترسيخها في العقول وتوريثها جيلا بعد جيل ، فانبرى علما جليلا - وزمرة من علماء الجبهة - يعيد معالم الدين إلى صورتها الطاهرة التي تتسم بالصفاء ، مستنكرا الابتداع السيئ ، مثبتا عرى الدين، منيرا العقول، مطهرا النفوس من برائين الخرافة وأدران البدع التي علفت بها .

و قد كان له اتصالات حيثة بمن حضروا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، عن طريق بعض الذين انخرطوا فيها من أبناء المنطقة ، ومن بينهم تلميذه المقرب الطالب حمزة خضران ، الذي انخرط في صفوفها و كان عضوا فعلا فيها ابتداء من سنة 1944.

هذا عن مساره الإصلاحي ، أما عن موقفه من ثورة التحرير و الجهاد فقد كان كغيره من العلماء العاملين، شغوبا بحب وطنه ، و الدفاع عن حياض عرويته وإسلامه، و قد رأى أن جهاده يكمن في إنارة العقول ، و تهيئة النفوس للأمر الجسام.

و حدث أن زاره يوما بعض المجاهدين ، فقام فيهم خطيبا بكلمات ألهمت مشاعرهم ، وأججت جذوة الجهاد في نفوسهم ، وقد سجل ذلك في قصيدة رائعة تعكس مدى حبه لوطنه ، و تمسكه بحقوق بلاده و أمته ، يمدح فيها الثورة و يشيد بانتصاراتها على الجيش الفرنسي الظالم . مطلعها :

يا زهرة برزت أنوارها و زهت

إذ لاحت أعلامها في الكون و انتشرت

و قد ضآبقته السلطآت الفرنسفة كثرآ ، متهمة إفآه بفشعل فففل الحرب ضدهآ ، و جمع السلآ لذك ، و لم ففنفس الشفخ الصعدآ إلف بعدآ أشرفف شمس الاستقلال ، و رفرفف رآففآ ، ففث كثر عطفآه ، و سمآ نجمه ، و صار الففقه الفبة ، الفف فشد إلفه الرآل.

6 - وفآفه :

بعد مسفرة طوفلة من النضآل والكفآح ، وبعد ففة آافلة بالفعلفم والعطفآ ، وفف لفة الجمعة من شعبآن سنة 1396 هـ الموافق لـ 29 فوفلفة 1976 م انفقلت روح الشفخ الطآهرة إلف بآرففآ ، و ودعت ورقلة فف ففوم مشهود فقفففآ وعآلففآ الفف عآش لفآ ولأهلفآ ، مففآح بر ورفمة ، آمرفآ بالمعروف ، ونآففآ عن المنكر ، و دآعفآ إلف الففر... .

هذآ بعض مآ فمكن أن ففآل عن العلامة محمد بن الفآج عفسف ، وعن مآثره و موآقفه ، الفف أشرفف بجلآلفآ ففآن بفآ إمامآ للترففة الروففة ، و صآرفف مضربآ للآمآل ، وأسوة فقتدى بفآ ، فرحم الله شفخنآ ، و فمفع المشآفخ والعلمآ وأسكنهم فسفح ففآنه. - آمفن-

7 - نماذج من شعره :

إن شعر الشفخ ففجه -عمومآ- ففو الوعظ و الإرشآد ، و قد استمد معآنفه من القرآن الكرعم ، و الففف الشرفف ، و الففآفة الإسلامفة عآمة ، و الففآفة الصوففة آاصة .

و من أشهر قصآئد الشفخ قصفدة (الإفشآدة بالفورة) ، و هذه نماذج منها:

فآ زهرة برزت أنوآرفآ و زهف

إذ لآف آعلامفآ فف الفون و انفشرف

فآ فبهة الأسد مدي الذراع إلف

نفل الموآهب من مولآك إذ بسطف

فآ فبهة الأسد فآ ففش ففررفنآ

بشر ببشرف من الرآمن قد ظهرت

تحقيق إيماننا بنصر خالقنا

يا حبذا بجزيل نعمة عظمت

إذ هي في الروم بعد العنكبوت بدت

أنوارها في جميع الأفق قد سطعت

فطالع السعد في الأفق قد ظهر

و نادى بالنصر و الفتح المبين ثبت

جمعت شملا لأمة بها لعبت

عراقيل الكفر و الأنذال إذ جمعت

فخيب الله سعي الكافرين و كم

من أمة هلكت إذ للشرور سعت

فحمد الله جل قدره و علا

فنحن من أمة المختار إذ نصرت

إذ حقق الله نصر المؤمنين كما

قد جاء في الذكر و الآيات قد ظهرت

يا جيشنا حمدت مسعاك أقطارنا

فاعشوشبت أرضنا من بعدما جذبت

فته دلالا على الأكوان حيث رضا

واشكر لنعمة المولى التي عظمت

من خلال هذه القصيدة تتجلى روعة الإسلام في إيمان المتصوفة الذين كانوا فاعلين في الأمة ، حين جمعوا بين العلم والعمل، وجسدوا اقتداءهم بالنبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم- الذي جمع بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر. وهذا منهج الأنبياء، يقول تعالى: "ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالوا الحمد لله الذي فضلنا

على كثير من عباده المؤمنين". (النمل 15) يقول علماء التفسير " آتيناها علما ، فعملنا به وعلمناه ، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة وقالوا الحمد لله"(2)

ونلمح من خلال هذه القراءة السريعة لهذه القصيدة أثر القرآن الكريم في أفكار الشاعر وأسلوبه، فقد أنزل الله -تعالى- القرآن الكريم معجزة لغوية وبيانية وعلمية، فكان له ابلغ الأثر في قلوب "الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله"، فكان لهم نبراسا وإيمانا وخلقا وشفاء، اقتداء منهم بالنبي الأعظم صلى الله عليه وسلم.

وقد تضمن القرآن أغراضا دينية شتى، و اتخذ من الجمال الفني أداة لتحقيق هذه الأغراض(3)، و يقوم هذا المنهج على أروع مظاهر الجمال الفني و الإشراق البياني، ولذلك اتخذ عديد الشعراء نورا ومنهاجا، نقف على ذلك جليا في أدب الشيخ وفكره، ومنهجه في الحياة، كان إماما في الدين والدنيا، لذلك كان - وسيظل- مصدر إلهام للشعراء والخطباء، كيف لا و«القرآن يحيل الجمال الفني أداة للتأثير الوجداني، حين يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية»(4).

و قد ترك ديوانا شعريا يضم عشرات القصائد أغلبها في مجال التصوف، والوعظ و الرقائق. والكثير من المخطوطات في شتى المجالات،

والشعر عنده ما كان صادحا بالحكمة ، ميالا نحوها ، عازفا عن المجون وضروب الخلاعة ، وخواء المعاني و انحطاطها، فالشعر من منظور العلماء رسالة ناطقة بالحق ، ذابة عن عرينه ، ذائدة عن حماه ، باعثة لعراه ، مؤصلة لمعالمه. وهكذا كان الشعر الذي كان يقرضه الشيخ ، ناطقا بالحق مستمدا معانيه من المعارف الإسلامية، ومن القرآن الكريم و السنة النبوية ، شعر وعظ و إرشاد ، و تكبير و تنبيه، يربط المؤمن دوما بعقيدته ، و يذكره بمولاه ، شعر إيمان و إصلاح ، و انتصار للحق كما حددت معالمه أي الذكر الحكيم ، و السنة المطهرة .

الهوامش:

- 1 - بحث من إعداد الأستاذ: محمد الأمين خويلد والشيخ علي خويلد الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة الشيخ العلامة محمد بن الحاج عيسى مسروق . الشط- ورقلة 01 جمادى الأولى 1412 الموافق لـ: 22 جويلية 2001
- 2 - د محمود السيد . من أسرار البلاغة في القرآن ص 40
- 3 - محمد سعيد رمضان البوطي، "من روائع القرآن"، تأملات علمية و أدبية في كتاب الله، مؤسسة الرسالة، بيروت،، 1416هـ - 1996م، ص 195.
- 4 - عبد العظيم المطعي، "خصائص التعبير القرآني"، ج2، ص 78.